إيمان الباعوش

بين الحُلم والمنفى

قصة



الكتاب: بين الحلم والمنفى (قصة قصيرة)

الكاتبة: أيمان الباعوش (المغرب)

الناشر: موقع بلد الطيوب (منشورات الطيوب)

سلسلة الكتاب العربي 25

www.tieob.com

toyob.libya@gmail.com

2024

الإهداء

إلى الصديقة العزيزة

نهيلة لعيالي

إلى ايمان،

أهديك هذا العمل لأنني أراه انعكاسا لما أعيشه وأشعر به.

أكتب، وأجدك في كل حرف ينبض بداخلي،
لأنك جزء من ذاتي التي لا تكتمل الا بك.

الى الذين استخفوا بقدراتي،

إليكم أهدي نبض حروفي وقصائد صمتي،

لأن الرياح العاتية هي ما يقوي جذور الشجر،

ولأن جرح التشكيك أزهر في داخلي عزيمة لا تكسر.

لولاكم، لما استحال الألم جناحين أحلق بهما نحو السماء.

إهداء خاص

إلى روح الزعيم علال الفاسي،

أهدي هذا العمل تقديرا لقامتك التي حملت هم الوطن،

ولروحك التي آمنت بالشباب، صانعي الغد وورثة الفكر.

كنت صوتا للحرية ونبضا للإبداع،

وتعلمنا منك أن الحلم يبدأ بخطوة،

وأن الإيمان بالشباب هو زاد الأمم نحو المستقبل.

قصيدة مهداة الى الزعيم علال الفاسي

علال، يا نبع الحروف الهادرة ... يا مشعلا يضفي على الدرب البصيرة

آمنت بالشباب نورا صادقا ... وبأنهم للحق أقوى من المسيرة

زرعت فيهم روح عز خالد ... وسقيت حلم الغد من نهر الغيرة

تقول: ان الفكر يصنع أمة ... وأن بالعلم يرسم كل صورة

يا قائدا أحيا القلوب بنبضه ... ومضى عظيما في كفاح من سميرة

اليك نهدي الشعر عرفانا بما ... غرست في الأجيال من عشق الكرامة

علال، يا من قاد فكرا شامخا ... لتظل ذكراك المدى نبض العزيمة

الفهرس

1. الفيلسوفة العشرينية

كانت ريم، فتاة في العشرين من عمرها، ترى العالم بنظرة تتجاوز بكثير سنوات حياتها القليلة. كانت تعتقد أن الفلسفة ليست مجرد أفكار عميقة أو حوارات مطولة، بل هي أسلوب حياة، طريقة لفهم النفس وأدراك ما وراء الظاهر. وفي مدينتها الصغيرة التي يحاصرها الصخب، كانت هي بمثابة الشعلة الهادئة، تحلل تفاصيل الأشياء، تبحث عن الحقيقة وسط زحام الأفكار السطحية، اعتادت ريم كل صباح أن ترتشف قهوتها قرب النافذة، حيث تستطيع رؤية حشود المارة، الوجوه التي تعبر بغير اكتراث. كانت تراهم وهم منشغلون بتفاصيل حياتهم اليومية وأدركت كم هو صعب على الناس أن يتوقفوا لحظة ويفكروا في معاني أفعالهم، في قراراتهم، في دوافعهم. وبطريقتها، كانت تتأمل في كل شيء، تبحث عن البساطة في العمق، وترى الأسئلة الخفية في كل لحظة عابرة.

وفي ليلة خريفية، وبينما كانت منهمكة بقراءة كتاب فلسفي عن فلسفة اللغة، سمعت طرقا خفيفا على بابها. كان صديقا قديما من أيام الجامعة، يحمل معه حزمة من الأوراق ويبدو عليه الإرتباك قال لها بعد لحظة صمت، "ريم أريد اجابة على سؤال لطالما حيرني: كيف أعيش حياة ذات معنى؟".

ابتسمت ريم وقالت بهدوء، " المعنى ياصديقي ليس شيئا تجده جاهزا، بل هو شيء تصنعه في رحلتك، في قراراتك، وفي لحظاتك الصغيرة.

نحن نسعى وراء أشياء تلهينا عن أن نسأل أنفسنا السؤال الأهم؛

ماذا نريد نحن؟

توقف صديقها لوهلة، ثم نظر في عينيها وسألها، "أليس من المرهق أن تحلل كل شيء؟ أليس من الأسهل العيش ببساطة؟

أجابت ريم بابتسامة يملؤها الشجن، "ربما، لكن أن أعيش دون أن أفهم، دون أن أبحث عن الجوهر، كأنه يشبه العيش في عالم رمادي بلا ألوان. الفلسفة تجعلني أرى الألوان، تمنحني الحافز لإستكشاف ذاتي ومعرفة ما أريد، لا ما يريدونه هم.

بعد أن أنهت ريم دراستها الثانوية، قررت الإلتحاق بكلية الفلسفة، بالرغم من اعتراض والديها اللذين كانا يريان أن الفلسفة لا تفتح أبواب العمل ولا تضمن لها مستقبلا واضحا. لكنها كانت ترى في الفلسفة شيئا أكبر من مجرد دراسة أكاديمية، بل كانت ترى فيها الطريق الى فهم ذاتها وأدراك العالم بشكل أعمق وهكذا، وجدت نفسها في قاعات الجامعة، تستمتع الى المحاضرات وتغرق في بحر الأسئلة والمفاهيم.

كانت القاعات الجامعية لها بمثابة عالم آخر، تنعكس فيه الأرواح والآراء المختلفة. كان زملاؤها ينظرون اليها بدهشة، فهي لم تكن كغيرها من الطلاب؛ كانت تحاور الأساتذة بشجاعة، تطرح أسئلة قد تبدو للآخرين مستحيلة.

لقد كانت تسعى لفهم الوجود، تبحث في أعماق الفلسفة عن شيء يشبه الحقيقة، شيء يشبه اليقين.

وخلال احدى المحاضرات، كانت ريم جالسة في المقعد الأمامي، تستمع بشغف لمحاضرة عن "معنى الحب في الفلسفة الوجودية". كانت المحاضرة تتناول رؤى الفلاسفة عن الحب كمفهوم يتجاوز الرغبات العابرة ويعبر عن ارتباط روحي عميق.

وبينما كانت الأستاذة تتحدث عن الحب كبحث عن جزء مفقود من الذات، التقت عيناها بعيني شاب كان يجلس في الجهة الأخرى من القاعة. كان اسمه ياسين، طالب في

السنة الرابعة، وله نظرة مليئة بالفضول، بشعره الكثيف وملامحه الهادئة، التي تخفي خلفها عقلا حادا.

بدأت علاقتهما بتبادل الآراء والنقاشات الفلسفية، كانا يتحدثان عن الحب من منظور فلسفي؛ هل الحب حاجة أم خيار؟ هل هو رغبة أم وهم؟ ومع مرور الأيام، لم يعد النقاش يقتصر على الفلسفة فقط، بل بدأ كلاهما يفتح قلبه للآخر.

وجدت ريم في ياسين توأما فكريا، ورأت فيه الصديق الذي تستطيع أن تشاركه شغفها بالفكر، لكنه كان أيضا أكثر من ذلك. كانت تشعر به كرفيق يفتح آفاقا جديدة ويمنحها القدرة على رؤية نفسها بعيون جديدة.

لكن مع الوقت، بدأت تتكشف الفروقات العميقة بينهما. كان ياسين يؤمن بأن الفلسفة هي وسيلة لفهم المجتمع وتغييره، بينما كانت ريم ترى أن الفلسفة هي رحلة داخلية لإكتشاف الذات. وبينما كانت تبحث عن أجوبة عميقة حول الوجود، كان هو يميل الى الواقعية، يرى في الفلسفة أداة للتغيير وليس للتأمل فقط. ورغم ذلك، جمعتهما لحظات من الدفىء والحميمية، لحظات تأمل في صمت، حين كانت ريم تتساءل عما إذا كان الحب فعلا جزءا من رحلتها الفلسفية.

في أحد الأيام، وبينما كانا يتجولان في الحرم الجامعي، سألها ياسين، "هل تعتقدين أن الحب يحتاج الى فلسفة؟

أجابت ريم بابتسامة خفيفة، "أحيانا أعتقد أن الحب هو الشىء الوحيد الذي لايمكن تفسيره ولا يمكن وضعه في إطار فلسفي. هو شىء نشعر به ولا نفهمه."

لكن بعد تلك الكلمات، بدأت تدرك ببطء أن مشاعرها تجاه ياسين تحمل في طياتها الكثير من الأسئلة التي لا تجد لها اجابات، وأنه رغم جمال العلاقة، الا أنها كانت تعيق بحثها عن ذاتها، كانت الفلسفة بالنسبة لها رحلة فردية، شيء يتطلب عزلة وتأملا.

2. المرأة الديمقراطية

لم أكن أتخيل يوما أنني سأجد نفسي منخرطة في السياسة، كنت فتاة عادية، أعيش في حي مترف في البساطة، أحيانا ما أتابع الأخبار وأقرأ الكتب والجرائد التي أستعيرها من البقال، لم أكن أرى نفسي كشخصية فاعلة في المجتمع. كانت حياتي روتينية الى أبعد تقدير، لكن الشبح المفقود دائما ظل يراودني، شيء أكبر من مجرد حياة هادئة أو مستقبل مهني أو زوج مخضرم.

أرى من خلال وسائل الإعلام حركات سلمية تطالب بالتغيير، يتحدثون عن الحرية والديمقراطية، لكنني لم أفكر أبدا أنني سأصبح جزءا من تلك الحركات.

بمجرد ولوجي بوابة الدرب، التقيت بزميلتي أمل رفيقة من زمن الجامعة، كانت أمل مختلفة عن باقي زميلاتي، مفعمة بالحماس والأمل، ودائما تتحدث عن التغيير والمساواة بين الجنسين، دعتني لحضور تجمع سلمي، في البداية كان هناك نوعا من التردد، لكن فضولي دفعني للموافقة.

عندما وصلت الى التجمع، وجدت نفسي محاطة بأشخاص من مختلف الأعمار والخلفيات، لكنهم متحدون بهدف واحد.

كان هناك حماس يملأ الجو، ووجدتني أصفق وأهتف مع الجميع. كان الأمر أشبه بأنني اكتشفت جزءا جديدا من نفسي لم أكن أعلم بوجوده البثة.

همست لي: "ستشعرين هنا بأنك في بيتك".

دخلت معها، ووجدت نفسي أمام حشد كبير من الناس يهتفون ويناقشون أمورا لم أكن قد سمعتها بهذا الوضوح من قبل. أصوات عالية، بعضها يهتف للحرية، وأخرى تدعو الى المساواة، كان لكل صوت طاقة خاصة.

أخذتني أمل الى حلقة نقاش في زاوية المكان، حيث كان الشباب يتحدثون بحماس. كان المتحدث الرئيسي شابا في أواخر العشرينات، يدعى يوسف، بدأ حديثه بذكر أهمية العدالة الإجتماعية ودور الشباب في صنع التغيير. كان كلامه موجها للجميع، لكني شعرت كأنه يخاطبني شخصيا. قال بصوت قوي: "المجتمع يحتاج لكل فرد يؤمن بأن التغيير ممكن. ولاشيء سيتغير الا بمشاركة الجميع رجالا ونساء".

شعرت أن كلماته تلامس شيئا في داخلي لم أكن واعية له من قبل. كنت أراقب الحاضرين، وكان من الواضح أنني لست الوحيدة التي تأثرت بكلامه. نظرت الى وجوه الناس حولي، رأيت الحماسة والإيمان، رأيت قوة تجمعنا كأفراد يسعون لشيء أعظم من أنفسهم.

بعد النقاش، اقتربت أمل مني وقدمتني لبعض الأعضاء النشطين في المجموعة. تحدثت مع سارة، وهي معلمة كانت تأتي في عطلاتها لحضور هذه الفعاليات.

قالت لي بابتسامة دافئة:

"الديمقراطية ليست سهلة، لكنها حق. وعلينا أن نتعب ونتكاتف من أجلها، خاصة كنساء، لأننا نعاني من قيود مضاعفة."

مع انتهاء التجمع، وجدت نفسي مشحونة بالطاقة. شعرت باندفاع لم أختبره من قبل، وكأنني استيقظت من سبات طويل. وأثناء عودتي للمنزل، أدركت أنني لست نفس الشخص الذي كان في الصباح، وأن هناك طريقا جديدا مفتوحا أمامي، طريق لن يكون سهلا ولكنه يستحق كل الجهد.

عندما عدت الى المنزل، لم أستطع اخفاء سعادتي وتحمسي، لكن والدتي لاحظت ذلك، وبمجرد أن أخبرتها بتفاصيل ما حدث، نظرت الي بقلق وقالت: "هذه الأمور ليست للنساء. السياسة للرجال، ودور المرأة محدود". شعرت بخيبة أمل كبيرة، كانت كلماتها ثقيلة علي. هل فعلا يجب أن أبقى صامتة؟ هل حكم على أن أظل في الظل؟

بدأت أفكر في الخيارات التي أمامي، وفيما إذا كان بامكاني أن أوازن بين قناعاتي واحترام عائلتي.

مرت الأيام، وسمعت أن هناك مظاهرة سلمية كبيرة سيتم تنظيمها في وسط المدينة. شعرت بأن على أن أكون هناك. كنت مترددة، خاصة بعد كل ما قالته عائلتي لي، لكنني شعرت بشيء أقوى يدفعني للمشاركة. كنت خائفة، لكني أردت أن اثبت لنفسي أنني أستطيع أن أكون جزءا من هذا الحراك. في المظاهرة، كنت أشعر أني أمتلك قوة لم أشعر أني أمتلك قوة لم أشعر بها من قبل، رأيت الآلاف حولي يهتفون للحرية والمساواة، شعرت أني لست وحيدة.

عندما عدت الى المنزل، كان بداخلي مزيج من الفخر والخوف. كنت أعلم أنني قد أواجه تحديات كبيرة من عائلتي ومن المجتمع، لكني لم أعد أشعر أنني أستطيع التراجع. جلست في غرفتي، وكتبت رسالة لأمل: "اليوم شعرت أنني قوية، شعرت أني جزء من شيء أكبر مني، وأن لدي دورا في كتابة تاريخ جديد." لم أكن أعرف ما الذي ينتظرني، لكني كنت متأكدة أن الديمقراطية ليست مجرد كلمة، انها حلم علينا أن نعمل لتحقيقه، خطوة بخطوة.

3.ظل على برعم الحياة

الطفولة لحظة عابرة، أشبه ببزوغ فجر يلقي بأشعته ببزوغ فجر يلقي بأشعته الخافتة على الروح، فتشرق منها الحياة كأنها أغنية قصيرة. لا مكان للتساؤلات الفلسفية في قلب طفلة مثل "ليلى"، الا أن ليلى كانت تدرك، ولو بلا وعي، أن الحياة تمنح البرعم وقتا لينمو، لتكتمل ملامحه وتتفتح أوراقه. وفي قلب قريتها النائية، كانت ليلى تلهو، ترسم وتحلم.

كانت تحمل في عينيها بريقا يشبه الأمل، ذاك الشيء الذي يخفيه المستقبل عنها ويظهر في خيالها كعالم واسع لم تكتشفه بعد.

كبرت ليلى وهي تؤمن أن الحياة سلسلة من المغامرات البريئة، فلم تعرف سوى المدرسة واللعب والأحلام الصغيرة التي تملأ عالمها الضيق.

كانت لديها أحلام كثيرة، بعضها في الحقول التي تتنقل بينها، وأخرى في دفاترها التي تملؤها بالرسومات. لكن هذا الإيمان الهش كان على موعد مع أول تصدع.

بينما كانت ليلى تستعد لامتحاناتها النهائية، جاءها الخبر كالصاعقة. قرر والدها، الذي تراه أمانا وحماية، أنها أصبحت "جاهزة" للزواج، وأنها سترتبط برجل يكبرها بثلاثة عقود.

في ذهن والدها، كان الأمر طبيعيا، بل وكان واجبا لضمان مستقبل ابنته. ففي تقاليدهم، الزواج هو الوسيلة "الأمثل" لتأمين الفتاة وحمايتها. لكن ليلى لم تفهم كيف يمكن لهذه الحماية أن تأخذ منها مستقبلها، كيف يتحول حاميها الأول الى من ينتهك أبسط حقوقها في اختيار طريقها.

تحولت نظرة ليلى للعالم من فضاء واسع مفتوح الى أسوار عالية، وصار الحلم يختنق في صدرها، يتلاشى أمام واقع مفروض لا مفر منه. كان قلبها يخفق بالرفض، بالحيرة،

وبشعور غامض بعدم العدالة. ومع ذلك، لم تجرؤ على مواجهة والدها أو الإعتراض. فكل كلمة كانت تحملها داخليا كصرخة مكتومة لا يسمعها أحد.

في يوم زفافها، جلست ليلى وسط الزينة والشموع، بدت كعروس تقليدية، لكن بداخلها، كانت ثورة صامتة. كانت تشعر أن حياتها قد تحولت الى مسرحية، وأنها ممثلة في دور لم تختره، لم تستوعب نصه ولم تفهم نهايته. تأملت وجهها في المرآة، تساءلت: "هل هذه أنا؟ هل سأعيش في هذا الدور طوال حياتي؟ هل للفتاة الحق أن تقرر متى وأين تتفتح أوراقها؟"

بينما كان الجميع يحتفلون، كانت ليلى في حالة أشبه بالغياب عن الواقع. لم تعد ترى الأشخاص من حولها، بل كانت ترى أسئلة كبيرة تتراقص أمامها: ما معنى أن يكون لك حق الحياة؟ ما معنى الحرية؟ وكيف تمنح، وكيف تسلب؟

بعد الزفاف، وجدت ليلى نفسها في حياة تفتقد للبراءة وللأمل. كانت تمضي يومها كأنها آلة، بلا روح، تحاول أن تتعايش مع واقع فرض عليها. الأيام تمر، والأحلام التي كانت تتراكم داخلها بدأت تتلاشى تدريجيا. أصبحت رسوماتها عبارة عن أوراق فارغة، تحمل خطوطا بلا معنى، وكأنها تعبر عن نفسها المفقودة.

وفي لحظة تأمل صامتة، جلست ليلى على الشرفة، تتأمل الحقول التي لطالما كانت ملجأ لأحلامها. تساءلت بصوت مرتعش: " لو كنت قد خيرت، هل كنت سأختار هذا؟ هل كان لي أن أعيش حلمي، أن أكون ما أردت؟". كان الجواب في قلبها واضحا، لكنه كان بلا صوت، جواب صامت يشبه الريح التي تتنقل بين أوراق الشجر بلا أثر.

4. صوت من المنفى

أجلس في المقهى الصغير على ناصية الشارع، أرتشف القهوة برفق، وأراقب حركة الناس حولي. وأعيد ترتيب أفكاري، هنا وهناك أتذكر الحرب الشيوعية ضد اسبانيا، في قلب اسبانيا، أشعر أحيانا أنني وحيدة رغم الزحام من حولي. لم تكن الغربة هي الإختيار الأسهل، لكنني كنت أومن أنني سأجد هنا مساحة أكبر لتحقيق أحلامي.

أحضر المحاضرات بانتظام، أشارك في الندوات، وأطرح أسئلتي دون تردد أحيانا، وأحيان أخرى أحاول أن أصبح شاعرة، ينظر الي بعض الزملاء باستغراب حين أطرح قضايا تتعلق بحقوق المرأة، بالمساواة، بالديمقراطية في الشرق الأوسط. أشعر بأني أقف على أرض غريبة، لكنني مصرة على ألا أفقد صوتي.

اليوم لدينا اجتماع في المجموعة الطلابية التي انضممت اليها منذ شهرين. انهم شباب من

جنسيات وأعراق مختلفة بعضهم من كتلانيا والبعض الآخر من الغجرز... لكن ما يجمعنا هو ايماننا بأهمية الديمقراطية وحقوق الإنسان. نتحدث في قضايا عديدة ، نحاول فهم تجارب بعضنا البعض، ونتعلم من قصصنا.

دخلت الإجتماع وكأنني أحمل ثقلا على كتفي. أريد أن أتكلم عن قضية تؤرقني منذ مدة: أوضاع النساء في بلدي. لا أحد في هذه القاعة يستطيع فهم الإحساس بالحرمان الذي نعانيه، لكنني أريد أن أشرح لهم.

أبدأ الحديث بصوت متردد، لكن شيئا فشيئا، أشعر براحة بدأت من قدماي، وبدأ قلبي يتسارع حين أرى أن العيون تتوجه الي باهتمام.

بعد الإجتماع، جلست بجانب "ماريا"، صديقتي الإسبانية. نظرت الي وقالت:

أشعر بمدى شجاعتك، ليس سهلا أن تتحدثي عن هذه الأمور أمام الجميع.

ابتسمت ورددت بصوت منخفض،

"ربما لأنه لم يعد لدي خيار، لقد جئت الى هنا لأجد صوتي، ولن أتوقف عن الدفاع عن ما أومن به.

في طريقي الى المنزل، شعرت بخفة غريبة. كأنني أتحرر شيئا فشيئا من قيود الخوف والإضطهاد التي أحملها من بلدي. ربما هنا، في بلد الغربة، سأتمكن من تشكيل ذاتي من جديد، وسأعود يوما لأكون صوتا لأولئك الذين لم يتمكنوا بعد من ايجاد أصواتهم.

5. رحلة في ظل الزعيم

في صباح خريفي بارد، كنت أجوب شوارع صفرو، حيث أشعر أنني أسير في عالم من الكلمات العتيقة، تلك التي خطها علال الفاسي.

لم أكن مجرد طالبة تبحث عن المعرفة في كتب التاريخ والسياسة، بل كنت أحمل عطشا غريبا لأفكاره، لرؤيته للعالم، وكأنني أبحث عن ذاتي في كلماته.

في الليالي الطويلة، كنت أجلس وحيدة أمام نافذتي، أنظر الى المدينة التي احتضنتني منذ الصغر، وأكتب شعري على ضوء القمر.

كانت كلماتي تخرج ببطئ، كأنها تحاور أفكار علال التي قرأتها مرارا. أحيانا، أضع بين سطوري مقاطع من كلماته، أشعر أنها تنبض بالحياة، تهمس لي وتخبرني عن طريق آخر للحياة والموت، طريق يحمل القوة والعزم.

في احدى الليالي، بينما كنت أتعمق في أحد كتبه القديمة، شعرت به جالسا بجواري، كأنني أراه بعيني.

كان ينظر الي بعيني حكيم، مليئتين بالحنان والعزم.

قال لي بصوت يشبه هدير النهر:

"العلم وحده لا يكفي، ياندى، بل يجب أن تؤمن روحك بما تقرأين، أن تشعلي قلبك حبا لقضية الإنسان."

شعرت أنني أمتلك طاقة جديدة، وكأن كلماته قد أوقدت في داخلي شعلة لا تنطفئ. حينها أدركت أن الشعر والكلمات يمكن أن يكونا أكثر من مجرد هواية؛ يمكن أن يكونا صرخة في وجه الظلم، نبضا يضيء به العالم من حولي.

فكلما غابت شمس النهار فوق جبال صفرو، كنت أعود الى عالمي الصغير، حيث أوراقي وأقلامي، وكتب الزعيم علال الفاسي. لم تكن كلماته مجرد حروف على صفحات عابرة، بل كانت مرآة تنعكس فيها روحي، صوتا يأخذ بيدي، وأحيانا يكسر صمتي بنبرة مليئة بالحكمة والصلابة.

كثيرا ما شعرت أنني لست وحدي؛ كان هناك شيء ما في الهواء، في رائحة الكتب القديمة، يحيي بداخلي صدى صوته.

لا تكتفي بالكلمات، يا ايمان

كان يقول لي وكأنني أصغي اليه في حلم،

اجعلي الشعر رسالة، اجعليه طريقك لقول ما لا يقال

كنت أغلق عيني وأراه واقفا هناك، يبتسم بهدوء، بنظرة تجمع بين الأب والمعلم.

وفي لحظات القراءة العميقة، كنت أحس أنني جزء من حكاية كبرى، نضال أبدي للحرية والكرامة.

حين قرأت عن "النقد الذاتي"، شعرت أن كلماته تهمس لي بأسرار التغيير، وكأنني في حضرة حكيم يبوح لي بسر من أسرار الكون.

النقد يا ايمان، هو ثورة صامتة، يبدأ في دواخلنا لنفهم، قبل أن نغير"

كانت تلك الكلمات تملأني بالأسئلة، تثير في داخلي ثورة صغيرة، وتدفعني لأبحث عن معنى أعمق لكل شيء حولي.

وفي احدى الليالي، رأيتني جالسة على ضوء القمر، أفتح صفحات دفتري وأكتب.

أحيانا كان القلم يثقل بين أصابعي، وكأنني أحمل أمانة كبيرة، كأنني اكتب نيابة عن كل الأصوات التي لم يسمح لها أن تسمع.

كنت أرى أفكاره تنساب في شعري، حروفه تختلط مع كلماتي، كأننا نتشارك في كتابة قصيدة مشتركة:

الكلمة يا ايمان حرية..

الكلمة عهد ووعد

كأن صدى صوته يتردد في أذني، فيسري في قلمي نداء خفي لا أفهمه تماما، لكنه يقودني.

لم أعد أقرأ كتبه كطالبة فقط؛ أصبحت أشعر وكأنني أبحث عن ملامح ذاتي بين سطوره، وكأنني طفلة تتلمس طريقها في ليل مظلم، مسترشدة بنور بعيد.

6. زهرة بين الأنقاض

كانت الحديقة العامة تعج بالأزهار والأشجار الوردية، تنقسم الى أشجار الكرز وأشجار الليمون والياسمين، بالإضافة الى أشجار البندق وكان للمساحات الحظ الأوفر من تلك الحديقة العامة، عندما وصل ياسر الى ذلك المكان الذي كان يعج بالحياة والأصوات في أيام خلت، بدت له الحديقة كأنها حزمة من رماد، يكسوها الصمت والكآبة.

بدأ ياسر يسير ببطئ، وكل خطوة تأخذ عاما ونصف من المشي.

وكأنه يخشى أن يكتشف أن المكان تغير لدرجة أصبحت، تفوق احتماله

بدأ ياسر بالبحث بعينيه بين الأنقاض، لكن البحث عن أمل في بقايا من ذكريات طفولته مخبأة بين الحجارة.

كانت عقارب الساعة تلسع صبره، وفي كل دقيقة تمر، تتجسد أمامه مخاوف الفراق والخسارة.

لكن وسط تلك المخاوف، كان قلب ياسر يتمسك بأمل مجيئها، كمن ينتظر شعاع الشمس في صباح شتوي معتم.

ظهرت نور فجأة بين الركام، لمحها ياسر من بعيد، فتخفق نبضاته بقوة، وكأنه وجد طوق نجاة وسط بحر الغرق.

تلاقت عيونهما، وفي تلك اللحظة انكسرت كل القيود، كانت نظرتها حنونة ومتعبة، لكن عينيها كانتا مشعتين كمن تشرق عليه الشمس بعد ليلة طويلة.

عندما أمسك ياسر بيد نور، شعر وكأن البرد والظلام ينقشعان، وكأنهما يعيدان بناء جدران الأمان حولهما بلمسة واحدة.

في صمت عميق، كانت نظراتهما تتلاقى، مليئة بحديث عن الخوف والأمل، عن الأيام الماضية والمستقبل الذي يبدوان مصممين على خلقه بقلبيهما المتشابكين.

تحركا معا بين الركام، وكأن خطواتهما تطلق حياة جديدة في هذا المكان الميت.

كانت يدهما المتشابكتان مثل رسالة لكل ما حولهما: أننا، رغم الألم، سنستمر.

اجتاح المكان صوت انفجار مفاجئ، كأنه غضب الأرض، اهتزت له الأجساد وغاصت الأرواح في لحظة خوف صامتة. كان الصوت يكاد يملأ المكان بأكمله، مثل صرخة تشق السماء.

فصوت الإنفجار يسمع كأنه قريب، يكسر الصمت العاطفي بين ياسر ونور.

فور سماع الإنفجار، مد ياسر يده بهدوء ليحتوي يدها المرتعشة.

ياسر: أنا هنا، لا تخافي

بعد الإنفجار، عم المكان صمت ثقيل، كأنما هو الصمت الأخير قبل انكسار العالم، ورغم ذلك، وسط الخراب، كانا يستمعان فقط لصوت النبضات التي توحدت بينهما، كأنها موسيقى حية تعاند الموت.

أخذ ياسر نفسا عميقا،

ياسر: نور خودي نفسا عميقا.

نور: طبعا طبعا

تبادلا الأنفاس بهدوء، واستنشفوا عمق الصمت كأنهما يستنشقان الحياة نفسها، متجاهلين الحرب التي تصخب حولهما. كانت أنفاسهما المتناغمة أشبه بتعويذة تحميهما من كل ما يحدث في الخارج.

تلاقت عيونهما في صمت، كأنما كل نظرة تتحدى أصداء الحرب، تحكي ما لا تجرؤ الكلمات على قوله. كانت نظراتهما عهدا مقدسا بينهما، أن مهما كان، سيبقيا معا.

بعد لحظة طويلة من الصمت، انبثقت من أعماق عيونهما ابتسامة صغيرة، كأنها ضوء بعيد وسط العتمة، وعد بأن الحب، وليس الصخب، هو الذي سيبقى للأبد.

ياسر: سأهديك هدية يا حبيبتي

أحست نور بشيء من الخجل، يرفرف على جبينها.

ياسر: يقول علال الفاسي

هبوا بني قومي الى الأقدام ... فالنصر مرتقب من القدام

هبوا فان الغاصب المحتلا ... قد جاء يستعلي على الإسلام

فلسطين الحبيبة كيف أغفو... وفي عيني أطياف العذاب

تنادي أمة الأحرار قومي... لنصرة حقنا في كل باب.

أخذ ياسر بيد نور وأغمض عينيه للحظة، وهمس:

سأعود اليك مهما طال الغياب، فحبي لك يتحدى هذا العالم الصاخب.

نظرت اليه بابتسامة باهتة، وعيونها تلمع بالأمل، ثم غاب في الظلام، لكنه بقي في قلبها كضوء يتحدى كل عتمة.

7. مصنع غزل

على بعد بضع أمتار من الحديقة المقابلة لتمثال الكرز، بمدينة صفرو كان يقع منزل لالة زنوبة كما يحلو لأهل المدينة مناداتها، منزلها يقع على مقربة من مطحنة الزيتون، ويحدها من اليمين الشلال وعلى جهة اليسار تقع الكنيسة، التي تم اغلاقها مباشرة بعد مغادرة اليهود من هذه المدينة، لالة زنوبة هي التي بقيت منهم لأن زوجها الحاج ابراهيم كان مسلما وتاجر ذهب في قصبة المدينة وهو من أبناء المدينة.

كانت لالة زنوبة معروفة بصنع الكعك والزرابي وهي التي قامت بتعليم معظم فتيات المدينة صنع الكعك والخبز أيضا.

للالة زنوبة ثلاث بنات وولد واحد هاجر الى اسبانيا ولم يجدوا له أثرا بعد ذلك.

احدى بنات لالة زنوبة تدعى غزل وهي أصغرهن، تحكي بعض الروايات أن جمالها لا مثيل له بحيث أنها عندما كانت تمر قرب مصنع مربى الكرز العمال يفقدون ذاكرتهم.

في صبيحة يوم من أيام شتاء 1962 طلبت لالة زنوبة من ابنتها غزل الذهاب الى مصنع مربى الكرز قائلة:

لالة زنوبة: يا حبيبتي غزل اذهبي الى المعلم الحاج الطاهر الصفريوي واطلبي منه قنينتين من مربى الكرز سأحتاجه في بسكويت.

غزل: حاضر يا أمي، لكن عمي الصفريوي لديه دكان آخر مجاور لمتجر أبي بباب المقام.

لالة زنوبة: لا يا غزل الدكان الذي يبيع فيه المربى، مقابل لمكتبة البلدية.

غزل: حاضر يا أمي

انطلقت غزل مسرعة، في اتجاه حديقة الطيور، التي تقع يسار القصر البلدي وهي ترتدي فستانا أحمر اللون، غزل ذات الأعين القمريتين والشعر الأشقر، ذات بشرة حليبية ساحرة؛ في طريقها الى الدكان خجلت فراشات الحي من رؤيتها لشدة جمالها الكلاسيكي الطبيعي.

عند وصولها لدكان الحاج الطاهر الصفريوي، وجدت شاب في مقتبل العمر وسيم، وتظهر عليه علامات الذكاء والفطنة، سألته غزل قائلة وعيناها ترفرف من شدة الإعجاب...

صباح الخير، هل عمي الحاج الطاهر الصفريوي غير متواجد هذا الصباح؟

أجابها الشاب الوسيم قائلا:

لا، لكن أنا ابنه واسمي سليمان، أبي ذهب في رحلة عمل الى اسطنبول اذا كنت تريدين شيئا أخبريني.

غزل: أريد قنينتين من مربى الكرز

سليمان: بكل فرح أيتها الجميلة أنت ابنة من؟

سليمان: ألست أنت خولة التي كنت تدرسين مع أخي ادريس في الصف الرابع ابتدائي بمدرسة الإمام مالك؟

غزل: لا لست أنا

تلك أختي أنا اسمي غزل أصغر عنقود في عائلة الحاج ادريس الحارثي.

ضحك الشاب سليمان على كلمة عنقود

ناولها قنينتين من مربى الكرز ونطق في صمت " يالها من فتاة رائعة قلبا وقالبا...

غزل: عفوا كم ثمن القنينتين؟

سليمان: أنا لا أعرف الثمن حينما يعود أبي سأخبرك بثمنها

غزل: شكرا لك سيدي

أحس سليمان عند سماع كلمة سيدي كما لو أن خيوطا من العنكبوت تلتف حول عنقه. وأصبحت يداه ثقيلتان ظن أن الفتاة الجميلة، لديها حبيب أو صديق مقرب رغم أن هذه الفكرة مستحيلة في مجتمع محافظ، لا يؤمن بمثل هذه الأفكار حتى أن قلب سليمان كاد يكف عن النبض من شدة التفكير في الأمر.

بدأ سليمان يفكر في حيلة من أجل معرفة ماذا في عقل الفتاة فوجد طريقة لسؤالها.

ما اسمك سيدتي؟

كانت عبارة سيدتي كسيف أتى من ساحة المعركة على يد محارب من الإمبراطورية العثمانية؛ تكلمت غزل في صمت يا الهي، ماذا يثرثر هذا يثرثر هذا الشاب هل لهذه الدرجة تظهر علي علامات الشيخوخة ام ماذا يحسب نفسه...

كان يوم خميس مشرق، وشمسه تظهر على بضع كيلومترات من ضيعة البرتقال التي تقع قريبة من شلال المدينة، كانت غزل تخيط ملابس العيد على ماكينة الخياطة التي أتت بها أختها خولة من سويسرا عندما كانت طالبة بكلية الطب آنذاك، وهي تخيط ملابس العيد ظلت تفكر في حيلة من أجل الذهاب، الى متجر مربى الكرز وبينما هي تفكر في حيلة من أجل اقناع أمها للذهاب.

سمعت جرس المنزل يرن، ذهبت نعمة أخت غزل التي تكبرها بسنتين فقط وهي سوداء البشرة كأنها لا تمت لعائلة الحاج الحارثي بصلة، هرعت بسرعة نحو باب المنزل، فاذا بالست مسعودة وزوجها المعمر الإسباني الذي قدم الى المغرب قرابة السبعين سنة، وابنها وسيم الذي يدرس القانون العام بمدينة بوردو الفرنسية.

استقبلتهم الست زنوبة بترحاب قائلة: أهلا وسهلا ومرحبا بطلة مسعودة وسيدي خالد أهلا بقدومكم.

أدخلتهم نعمة لغرفة الضيوف، وهي عبارة عن صالون مكون من أفرشة، ذات جودة عالية وكراسي من خشب الكرز وطاولات كبيرة وضعت عليها صينية من الذهب وكؤوس جميلة. وبها نافذتين تطلان على حديقة المنزل، وضعت عليها باقات من ورد الياسمين.

وتفترش أرض هذا الصالون زربية حمراء كأنها قادمة من أهرامات مصر ، سألت الست زنوبة وسيم: متى عدت من الديار الفرنسية يا ابني وسيم؟ فأجابها قائلا: قبل يومين يا خالتي.

بعد نقاش مطول بين الحاج الطاهر الصفريوي والمعمر الإسباني وابنه وزوجته الست مسعودة عن التجارة ومشروع بناء متجر آخر لصنع عصير البرتقال بعد الإنتهاء من الحديث عن التجارة وأخبار اسبانيا والمغرب، وأخبار سبتة ومليلية ابان تلك الفترة من تاريخ المغرب. أخبرت الست مسعودة الحاج الطاهر الصفريوي أنهم اتوا لخطبة غزل، لكن الهدف لم يكن هو الزواج لكن كانت وراءه صفقة شراكة بين العائلتين، وأطماع تجارية.

كانت تجلس على كرسيها الخشبي، تداعب قطتها لورا وتتذكر الشاب الجميل سليمان حين جاءت أمها متهللة ووضعت يدها على كتفها في حنان ممطر.

غزل... يا ابنتي ولد المعمر الإسباني وسيم جاء لخطبتك " تشنج جسد غزل وأصبحت يد أمها ثقيلة كأنها تحمل على كتفها كومة من حطب التدفئة؛

ظننتك كبيرة على خجل الفتيات يا صغيرتي

ماذا بوسع فتاة في مجتمع محافظ، تعتبر المرأة فيه جسدا فقط وآلة لصنع الأطفال لا أقل ولا أكثر، امرأة كأنها خادمة في بيت زوجها.

في صيف سنة 1960 هرول نساء وفتيات زنقة اسطنبول بالزغاريد الى منزل الست زنوبة من أجل التحضير لحفل زفاف الجميلة "غزل" وتحضيرها أيضا لتكون في أجمل حلة وحينما أتت الست زليخة طلبت من احدى الفتيات احضار قنينة من مربى الكرز، حينما سمعت غزل الست زليخة تطلب قنينة.

والست زليخة هي من تملك مفاتيحه ذهبت اليها مسرعة قائلة أنا من سأحضره يا خالتي.

حين أشرقت الشمس امتلأ قلب غزل بالإحساس، ونطقت قائلة:

ياربي لماذا بعثت لي ابن المعمر الإسباني؟ لماذا؟

8. نافذة الأحلام

كل صباح، كانت ايزابيل تصل الى المتجر قبل شروق الشمس. تفتح الأبواب وتبدأ بتحضير الحلويات، تزن المكونات بعناية، تخلطها، وتراقب العجينة وهي تتشكل بين يديها. كان المتجر بالنسبة لها عالما مغلقا يعج بالألوان والروائح، حيث تتدفق أحلامها بحرية.

كانت تحب اعداد الحلوى وتؤمن أن لكل قطعة قصة، وأن لكل طعم ذكرى.

في أحد الأيام، دخل المتجر شاب يدعى ميغيل، بدا عليه أنه غير مألوف المكان، يحمل معه حقيبة ظهر وكاميرا.

طلب قطعة من حلوى الكراميل، ووقف أمام الطاولة يتأمل ايزابيل وهي تعمل بصمت.

لاحظت نظراته المتفحصة، وسألته ان كان يود تجربة حلوى جديدة أطلقت عليها اسم "رومانسيا"، قائلة انها تجمع طعم الفانيلا باللوز والنكهة العتيقة للشوكولاتة الداكنة.

تبسم وأخذ القطعة، وعلق قائلا: طعمها يحكي حكاية أجيال".

أصبح ميغيل زائرا يوميا للمتجر. في كل زيارة، كان يحكي لإيزابيل قصة جديدة عن رحلاته في أرجاء اسبانيا وأوروبا، عن جبال البرانس المكسوة بالثلوج، وشواطئ كاتالونيا، وسهول الأندلس.

مع كل زيارة لميغيل، كانت ايزابيل تتعلق أكثر بفكرة السفر. أصبح حديثهما أشبه برحلة خيالية تقودها في كل مرة الى مدينة جديدة أو الى طريق لم تعرفه من قبل، كان يتحدث عن شوارع برشلونة المزدحمة، عن الأسواق في غرناطة حيث تتعانق روائح التوابل، وعن أضواء الليل التي تنعكس على مياه البحر في فالنسيا.

كل قصة كانت تفتح نافذة جديدة في ذهنها، وكأن ميغيل يمنحها أجنحة تطير بها عبر حكاياته.

في احدى الليالي، بعد أن غادر ميغيل المتجر، جلست ايزابيل وحدها تتأمل المحل الهادئ،

شعرت فجأة بغصة؛ لم يعد المتجر كافيا لأحلامها المتزايدة.

عرفت في أعماقها أن الحياة خارج هذا المتجر تحمل مغامرات تنتظرها، لكنها كانت تخشى ترك الراحة والأمان.

كانت تردد لنفسها:

ماذا لو كان العالم كبيرا علي؟

ماذا لو لم أستطع أن أجد نفسي خارجه؟

أخذت قطعة صغيرة من الحلوى التي صنعتها بنفسها، وتذوقتها ببطء، كأنها تحاول تذوق حياتها كلها في لحظة واحدة. أدركت حينها أن الشجاعة لا تأتي فقط من التغيير، بل من القدرة على ترك شيء عزيز وراءك، وأن الحلوى التي صنعتها ليست مجرد طعم، بل رمز لكل ما تؤمن به في الحياة.

بعد أيام من التفكير العميق، وجدت ايزابيل نفسها تتخذ قرارا جريئا. استقالت من المتجر الذي أحبته، ودعت أصحابه وتلامس وجهها بابتسامة حزينة، وشكرهم على كل لحظة قضتها هناك.

كانت خطوتها الأولى نحو العالم المجهول، رحلة قررت أن تبدأها بلا خارطة، سوى الخارطة التي رسمها ميغيل في مخيلتها.

خرجت ايزابيل من المتجر تلك الليلة، وحقائبها تحمل القليل من الملابس والكثير من الأحلام، وتوجهت نحو المحطة وهي تملؤها الشجاعة.

وأن لكل طعم مغامرة تستحق أن تعاش.

9. الحياة اليومية

ابدأ يومي بتثاقل واقف أمام مرآتي، وكأنني أبحث عن شيء فقدته في عيني أتساءل متى تحولت هذه الشابة الى وجه مثقل بالأرق والإنتظار.

أرتدي ملابسي كأنني ذاهب الى عمل وهمي، ربما كنوع من الطقوس التي تحافظ على شعوري بالانتماء. أجلس في مقهى الحي، أراقب الوجوه المألوفة التي تأتي كل يوم مع كوب القهوة.

معظمهم موظفون في مكاتب قريبة، ينظرون الى ساعاتهم بين الحين والآخر، يتحدثون عن شكاوى العمل وظهر الحياة. لكنني لا أملك هذه "الشكوى"، أقنع نفسي أحيانا أنني محظوظ بالحرية، لكن الحرية بلا هدف تبدو أقرب للسجن.

أفتح جهاز الكمبيوتر، أبدأ تصفح المواقع والإعلانات لكن دون جدوى أجد نفسي أكرر نفس الخطوات كل يوم، أفتح المواقع المخصصة للوظائف، أتصفح العشرات من الإعلانات اقرأ الشروط وأشعر بأنني لست مؤهلة، لكن قلبي يرتاب؛ هل سيرونني مناسبا؟

أفتح سيرتي الذاتية، أعدل فيها هنا وهناك، أضيف تفاصيل عن تدريب صغير التحقت به قبل عامين، أحذف بعض الكلمات وأعيد صياغة جملة؛ كل شيء يجب أن يكون مثاليا.

أعيد تحميل المستندات وأرسلها، كما لو أنني أرسل جزءا من روحي مع كل طلب عمل.

قبل كل مقابلة، أقف أمام المرآة وأتدرب أكرر جملا تعلمتها في دورات اعداد السير الذاتية،

وأجهز نفسي للأسئلة المعتادة:

لماذا ترغب في العمل لدينا.

أقرأ اعلانا آخر. "مطلوب خريجة حديثة، خبرة لا تقل عن خمس سنوات.

أضحك بسخرية، كيف لي أن أكون حديثة التخرج وصاحبة خبرة في الوقت نفسه؟ هناك وظائف تطلب اتقان عدة لغات، مهارات في برامج حاسوبية لم أسمع بها من قبل، ومؤهلات

لا يمكن لشابة مثلي امتلاكها. أشعر وكأنني في سباق لا أستطيع اللحاق به، حيث كل شيء بعيد عني، وكل متطلبات السوق لا تتماشى مع ما لدي.

بعد المقابلات، يبدأ الإنتظار تلك الفترة بين القبول والرفض، تلك اللحظات التي أضع فيها الهاتف بقربي ليلا ونهارا، وأفزع كلما سمعت رنينه، متأملا أن يكون اتصالا من تلك الشركة.

بعد أسبوع، أفتح بريدي الإلكتروني.

مع تكرار الرفض، أبدأ بالتشكيك في قدراتي، هل أنا مؤهل حقا؟ أراجع شهاداتي وتجاربي.

أبحث عن دورات مجانية على الأنترنيت لتحسين سيرتي الذاتية، أتعلم برنامجا جديدا أو لغة أجنبية.

أصبحت حياتي سلسلة من الدورات والمقالات عن كيفية اجتياز المقابلات بنجاح، لكنني أدرك أن كل هذه الجهود ليست ضمانا لأي شيء.

بعد شهور من الرفض والمقابلات الباردة، كانت الليلة هادئة وأنا جالسة أمام شاشة الكمبيوتر أعبث بطلب عمل جديد، شعرت بتعب يجتاحني، كأن كل ثقل الأيام السابقة اجتمع في هذه اللحظة.

أغمضت عيني للحظات، وبينما أنا في هذا الصمت العميق بين اليأس والحلم، وجدتني في مكان غريب، مضاء بنور دافئ كضوء الشروق.

أحسست بوجود شخص خلفي، شخص يشبهني تماما، لكن ملامحه كانت تحمل هدوءا وسلاما لم أشعر بهما من قبل.

ابتسم لي وراح يقترب بخطوات هادئة، ثم همس:

لا تتعبي نفسك بالبحث عن العمل، اجعلي الحياة هي التي تبحث عنك.

وأشار بيده الى حقل شاسع، حيث كل زهرة كانت تحمل رمزا لوظيفة أو هدف، كأنني أمام عالم من الإحتمالات اللامحدودة، وكل زهرة تشع بأمل جديد لم أكن أراه.

وفي تلك اللحظة، أدركت شيئا غريبا؛ لم يكن هدفي الحقيقي أن أجد وظيفة، بل أن أجد شيئا يعيد لي احساسي بالإنتماء والمعنى. شعرت أنني أخيرا أتحرر من سجن الرفض، كأن شبح الفشل الذي كان يطاردني قد تبخر، وامتلأ قلبي بشجاعة جديدة لم أعرفها من قبل.

استيقظت من حلمي على صوت تنبيه البريد الإلكتروني. نظرت الى الشاشة، ووجدت رسالة اعتذار جديدة: "نأسف، ولكن تم رفض طلبك."

ابتسمت، للمرة الأولى منذ شهور، شعرت أن الرفض لم يعد يملك قوة علي.

لم يكن النهاية، بل كان مجرد خطوة أخرى على طريق طويل نحو شيء أعمق.

10.على عتبة الوطن

كانت صباحيات الحي تبدأ بضجيج أطفال يركضون على الدرج وبعبق القهوة التي تتسرب من شقوق الأبواب.

أنا فاطمة، مغربية أمضيت سنوات في هذا المبنى القديم، وكان قلبي دائما مشدودا للوجوه التي تجول في الممرات وتلك الحكايات التي ترافق كل جار، في كل صباح أستيقظ على أصوات الحياة في هذا المبنى القديم. ضحكات أطفال، صوت أم تناديهم من الشرفة، وأصوات خطوات تصعد الدرج.

أحاول أن أبدأ يومي كالمعتاد، لكن منذ أن سكنت ليلى في الشقة المجاورة، تغير شيء ما في الروتين الذي اعتدته.

كنت أراقبها أحيانا من فتحة الباب، صوت خطواتها الهادئة، وعيناها اللتان تحكيان أكثر مما تتكلم به عبق التاريخ.

في البداية، تبادلنا تحيات قصيرة عند الدرج، لم أكن أعلم ما الذي تخبئه خلف هذا الهدوء، ولم أكن أعرف ان كنت أرغب في اكتشاف ذلك، لكنني شعرت بشيء يجذبني نحوها، كأن صمتها يحمل جزءا من قصتي أنا أيضا.

ذات صباح، لمحت ليلى وهي ترتب شيئا أمام باب شقتها. كان وجهها مرهقا، لكنها ابتسمت عندما التقت عينانا، دعتني لشرب الشاي فشعرت بشيء من التردد لوهلة، لكنني قبلت الدعوة.

لم أكن أعلم أن تلك الزيارة ستفتح أمامي عالما جديدا...

عندما دخلت بيتها، شعرت كأنني دخلت قطعة من وطن بعيد، كانت رائحة القهوة المخلوطة بالزعتر تملأ المكان، وصور قديمة تزين الجدران، صور لأشخاص لم أتعرف اليهم، لكنهم كانوا قريبين من قلبي دون أن أدري السبب.

جلست بجوارها على الأرض، حيث كانت أقداح الشاي تنتظرنا.

لم نتحدث كثيرا في البداية، كأن الصمت كان يكفي ليروي كل ما لم نستطع قوله، كان في عينيها حزن عميق، يشبه الغربة التي عشتها أنا أيضا بعيدا عن عائلتي وبيتي.

تحدثت أخيرا، بصوت خافت، عن حياتي هنا، عن ذكريات قديمة في المغرب وعن أحلام لم تتحقق، عن الثانوية التي درست بها وعن قلعة الأدب.

شعرت بيديها تربت على كتفي، كأنها كانت تواسي نفسها قبل أن تواسيني.

ثم بدأت ليلى تحكي، كأن صمتها انهار في تلك اللحظة، قالت لي ان كل شىء في حياتها أصبح متشابكا، تتداخل فيه ذكريات الطفولة مع مشاهد الحرب والخوف، تحدثت عن عائلتها التي تركتها خلفها، عن حب قديم لم يكتمل، وعن أحلام ضاعت مع رحيلها من فلسطين.

ففي كل زيارة لها، كانت ليلى تحضر شيئا جديدا من ثقافتها، وكأن تحاول اعادة بناء عالمها داخل شقتها الصغيرة. كانت تحكي لي عن الحياة في القدس، عن الزيتون الذي يغطي التلال، عن الزغاريد التي تصدع في الأعراس، وعن الأحلام التي كانت تطاردها منذ الطفولة، كنت أنصت اليها وأشعر بشيء يتغير في داخلي، كأن حبا جديدا للوطن ينمو في قلبي، ليس وطني فقط، بل وطنها أيضا.

وذات ليلة، بينما كنا نجلس على شرفتها الصغيرة تحت سماء يملؤها القمر، فاجأتني ليلى بحديث مختلف. قالت:

فاطمة: أريدك أن تأتي معي في حلم،

ابتسمت، ظننت أنها تمزح، لكنها كانت جادة، أغلقت عينيها ومدت يدها، وكأنها تطلب مني أن أفعل الشيء نفسه.

تردد في نفسي، لكنني استسلمت لفضولي.

أغمضت عيني ومددت يدي، وفجأة شعرت بأننا لسنا في تلك الشرفة الصغيرة بعد الآن.

كان المكان حولنا يتغير، ووجدت نفسي وسط حقول زيتون شاسعة، صوت الطيور يغرد من بعيد، ورائحة الأرض تعبق في الهواء، كانت ليلى تقف بجواري، وابتسامة هادئة ترتسم على وجهها.

قالت لي، هذا هو بيتي، هذا هو وطني: نظرت حولي وأنا لا أصدق ما أراه، كأنني أعيش حلما سحريا، حيث يتلاشى الواقع ويصبح المستحيل ممكنا، مشينا معا عبر التلال والبيوت الحجرية، تحدثت لي عن كل زاوية في ذلك المكان، كأنها تقدم لي أجزاء من قلبها لم تبح بها من قبل.

وفي لحظة، امتدت أمامنا مدينة القدس، تلمع بأضواء تشبه النجوم، تأملتها بصمت، وأنا أشعر بقوة غريبة تجذبني نحوها، كانت عيني تدمع، ولا أدري ان كانت دموعي بسبب جمال المنظر، أم لأنها مدينة لم أعرفها لكنها شعرت وكأنها جزء مني.

استيقظت فجأة من الحلم، وعدت الى شرفة ليلى الصغيرة، لم أستطع أن أصدق ما حدث، ولكن ليلى كانت هناك، مبتسمة، وعيناها تلمعان بدموع تشبه دموعي، قالت بهدوء:

فاطمة: أحيانا حتى الأحلام تستطيع أن توصلنا الى الوطن، ولو للحظات.

أصبحنا، ليلى وأنا، كأننا أرواح متآلفة، كلما التقينا، كانت قصصنا تختلط، وأحاديث تبحر بنا الى عوالم جديدة، وكأن شرفتها الصغيرة بوابة لحياة أخرى، كنا نسافر بأرواحنا عبر الزمان والمكان، الى حيث لا حدود.

وذات مساء، بينما كنا نجلس سويا تحت سماء صافية، اقترحت ليلى فكرة غريبة، قالت لي: فاطمة، تخيلي لو أن بوسعنا اختراق الزمن والعودة الى أرضينا، لو أن خطانا تستطيع أن تعبر كل الحدود.

ابتسمت وقلت: ما الذي يمنعنا؟ كل شيء ممكن في الأحلام.

استيقظت فجأة على شرفتي، وأدركت أنني وحيدة. كانت شقة ليلى فارغة، ولا أثر لها في المكان، تركت لي من قلبي سرا من عوالم أخرى، كأننا عبرنا معا حدود الزمان والمكان، وتركتني أؤمن بأن كل الحواجز قد تكون مجرد وهم، وأن القلوب المتآلفة تستطيع أن تجد وطنها في أحلامها، حتى وان كانت الأوطان.

11. خلف الأبواب المغلقة

أذكر تلك اللحظات الأولى التي وضعت فيها قدمي داخل بيت غريب، كان المنزل هادئا، والنوافذ الكبيرة تطل على الشارع كأنها عيون تراقبني بحذر، شعرت أنني غريبة بين الجدران، لكنني اعتدت أن أعمل بصمت، أصب كل طاقتي في تنظيف الأسطح ولمعان الزجاج، كان لكل منزل رائحة خاصة، ولكل زاوية حكاية أستطيع أن أشعر بها.

كنت أحمل في حقيبتي دفترا وقلما، مثل أسرار مخبأة أحرص على ألا يعرف أحد بوجودها.

كنت أخاف أن تصادر مني الكلمات، أن تختزل حياتي في أعمال منزلية دون أن أترك أثرا لي.

لم يكن شيئا مخططا، الحياة كما هي، قادتني الى أبواب الآخرين، لأعمل في منازلهم وأنظف غرفهم. كنت أدخل كل بيت بشيء من الحذر، كما لو أنني أستأذن بدخول حياتهم أيضا. كنت أراقبهم، لكن دون ضجيج؛ كأنني ظل يتبعهم دون أن يشعروا. كل التفاصيل الصغيرة، كل أثر يترك على الكراسي والطاولات، كانت رسائل خفية، تخبرني عنهم شيئا فشيئا.

في منزل أحدهم، كان هناك رف من الكتب التي يعلوها الغبار، رف مهمل كأن صاحبه نسي يوما أنه عاشق للأدب، لم أستطع مقاومة فكرة اللإقتراب منه، تحسست الكتب بحذر كأنني أتحسس تاريخا بعيدا، وقرأت العناوين ببطء، كما لو أنني أستمع الى همس خفي، وفي لحظة لا أزال أذكرها كأنها حدثت الآن، أخذت كتابا صغيرا ووضعته في جيبي خلسة.

لم يكن سرقة بقدر ما كان رغبة ملحة لمعرفة ما بداخل تلك الصفحات.

في الليالي التي تلت، بعد أن انتهيت من عملي وأقفلت غرفتي، جلست تحت ضوء مصباحي الخافت وفتحت الكتاب. كان كأنني أفتح نافذة جديدة تطل على عالم مختلف. الكلمات كانت تسحبني بهدوء، تأخذني بعيدا عن تلك الحياة المليئة بالمشقة والتعب.

كان الكتاب عن فتاة تسعى لتحقيق حلمها رغم قسوة الحياة، وشعرت وكأنني أقرأ عن نفسي، من تلك اللحظة، أصبحت الكتابة ملجئي، وبدأت أسجل قصصي في دفتر صغير، أهديه لنفسي دون أن أخبر أحدا.

أصبحت أراقب تفاصيل صغيرة في حياة الآخرين، فنجان قهوة بارد، صور قديمة على جدار، أو قطعة مجوهرات موضوعة في درج مهمل. كنت أسأل نفسي: من أين جاءت هذه الأشياء؟ من وضعها هنا؟ وماذا تعني لهم؟ كنت أعود الى غرفتي مساء، وأعيد ترتيب حياتهم في عقلي، أصنع قصصا عنهم، أحيك تفاصيل، وأطلق العنان لخيالي.

لم تكن هذه القصص مجرد تسلية أو هروب؛ كانت طريقة لي لأتجاوز واقعي، لأعيش حياة لا يمكن أن أعيشها حقا. بدأت أكتب عن تلك المرأة العجوز التي تسكن في الطابق العلوي، وعن الشاب الذي يترك دراجته بجوار النافذة، وعن الأسرة الصغيرة التي تتشاجر يوميا حول الطاولة.

لم يكونوا يعلمون، لكنهم أصبحوا جزءا من عالمي، وكلما كتبت، شعرت كأنني أتحرر من القيود اليومية وأقترب خطوة نحو حلمي.

ومع مرور السنوات، شعرت أنني بدأت أفقد الإهتمام بالعمل ذاته. أصبحت الكتابة هي ما يشغلني، أصبح شغفي حقيقيا لدرجة أنني قررت في لحظة جرأة أن أتقدم بقصة كتبتها الى احدى دور النشر.

كانت قصة عن فتاة مثل كثيرات في مجتمعي، تعمل بجد وتكتب بصدق. لم أكن أملك الأمل الكبير، لكن في مكان ما داخل نفسي كنت أؤمن أن كلماتي ستصل الى من يستحق أن يقرأها.

وذات يوم، وبينما كنت أجمع أمتعتي استعدادا للذهاب الى العمل، وصلني رد من دار النشر.

شعرت أن العالم توقف لحظتها، كأنني لم أعد تلك الفتاة البسيطة التي تعمل لتنظيف البيوت، بل أصبحت شخصا آخر، شخصا كتب شيئا يستحق أن يقرأ.

طارت بي مشاعري، ونسيت للحظة كل التعب والساعات الطويلة التي قضيتها في العمل.

شعرت أنني وصلت الى جزء من نفسي لم أكن أعلم أنه موجود.

ومن هنا بدأت قصتي ككاتبة، بدأت أرى الحياة كفصل من رواية لم تكتب بعد، وبدأت أشعر أنني أستحق مكانا بين صفحات الأدب.

لم أعد مجرد عاملة منزلية؛ أصبحت كاتبة، تسجل حكايات الآخرين وحكايتها، وتترك أثرا ربما لا يمحوه الزمن.

في تلك الليلة، بعد أن استلمت الرسالة من دار النشر، شعرت وكأن حلمي أصبح ملموسا، شيئا أخيرا يمكنني لمسه.

جلست وحدي في غرفتي الصغيرة، تحت ضوء المصباح الذي رافقني طوال سنوات، وبدأت أسترجع رحلتي، كنت في قمة السعادة، فكل كلمة كتبتها وكل لحظة قضيتها في العمل الشاق كانت قد جلبتني الى هذه اللحظة.

أمسكت قلمي، وكتبت بضع جمل في دفتري، كأنني أكتب خاتمة لفصل من حياتي.

لكن ذلك الفرح لم يدم طويلا؛

في صباح اليوم التالي، وبينما كنت في طريقي الى العمل، شعرت بدوار مفاجئ، ولم أدرك ما يحدث الا عندما وجدت نفسي مستلقية على الأرض. كانت رؤيتي مشوشة، لكنني تذكرت حينها أنني لم أعتن بصحتي كما يجب، كانت سنوات من الإرهاق والحرمان قد أثقلت كاهلي. أحسست بأنني لم أعد أملك القوة للنهوض.

لم أكن أدرك أن تلك اللحظة ستكون الأخيرة لي، بين الوعي واللاوعي، كانت الأفكار تتداخل، حلمي الذي تحقق، كلماتي التي ستقرأ، تلك القصص التي أردت لها أن تبقى خالدة. ابتسمت للحظة، وتمنيت لو كنت أعيش طويلا بما يكفي لأرى كتبي تتصدر رفوف المكتبات.

وفي لحظة أخيرة، شعرت بدمعة ساخنة تنزل على وجنتي.

لم أكن حزينة على نفسي، بل على كل القصص التي بقيت في داخلي ولم تخرج للنور، على أحلامي التي بدأت تتلاشى كما يتلاشى الضوء من عيني.

كان العالم من حولي يتلاشى، ولم أعد أسمع سوى صوتي الداخلي يهمس: لقد كتبت، ولو للحظة، لقد عشت ككاتبة.

وفي الصباح، وجدوني هناك، جثة هامدة في الزقاق، لكن يدي كانت لا تزال قابضة على دفتري، كما لو أنني رفضت أن أتركه، كأنني كنت أحمل عالمي بين صفحاته.

ولم يعلم أحد قط عن تلك الكلمات الأخيرة التي كتبتها، عن الحلم الذي ولد ليلا ولم ير نور الصباح.

12.بين السطور والأبيات

أدخلت مفتاحي في الباب بحذر، محاولة ألا أحدث أي ضجيج، لكنني رأيتها تجلس هناك، في الزاوية، في ظلام الغرفة.

لم تكن نائمة كما ظننت، كانت منغمسة في كتابة قصيدة جديدة، مع ضوء خافت يأتي من شمعة بجانبها، بدت وكأنها في بعد آخر، بعيد عني، تخطه بأبيات غامضة تشبهني أكثر مما أستطيع تفسيره.

شعرت بأنها بعيدة، لكن نظرة واحدة منها كأنها شعرت بوجودي، أعادتني الى عالمها...

أو الى قصيدتها.

عندما أتأملها وهي تكتب، أشعر أنها تعيش في عالم آخر، عالم ترسمه بكلماتها، وتحلق فيه بحرية مطلقة. أما أنا، فأبدو أمام أوراقي محكوما بقيود الحبكة والخط السردي.

أتمنى لو أستطيع الكتابة مثلها، باندفاع، دون حدود أو قواعد. لكننا مختلفان، وهي تعرف ذلك، وتحب هذا الإختلاف في؛ تراه كتحد جديد، وأنا أحب فيها تلك الحرية، التي أراها ولا أستطيع بلوغها.

في تلك اللحظات الخاصة، حينما تلتف يديها حول فنجان قهوة بيننا، تهمس لي ببيت من قصيدتها الجديدة. يقول لها انها ساحرة، ويشعر أن عالمها يمنحه حياة لم يكن ليحلم بها.

يصف كيف أن بعض كلماتها تغزو أفكاره، فتصبح روايته مليئة بألوانها وتتحول شخصياته الى صدى لتأملاتها يقول:

كأنها تدس أفكارها بهدوء بين سطوري، أجد نفسي أكتب عن نساء يشبهنها، عن عيون حائرة، وعن أرواح تبحث عن الحرية.

حتى أنني أخاف أحيانا أن أكون أكتب قصتها لا قصتي، كأنني، من دون وعي، أحاول أن أكتب القصيدة التي تجسدها.

تتبدل المشاهد بين لحظات التأمل والشكوك الصغيرة التي تظهر بينهما، تلك التي تجعله يشعر أن الشعر قد يبعدنا عنه، لكن سرعان ما تعود وتطمئنه بلمسة، بكلمة، أو ببيت شعري، كأنها تعيد تشكيل قلبه من جديد. وتخبره في احدى الليالي:

أتعلم؟ أحيانا أشعر أنني أنا أيضا رواية...

أنك تكتبني بطريقتك، وتراني من خلال كلماتك.

ذات ليلة، كانت تجلس بجانبي، نحدق في صمت عميق الى الفراغ. لم نكن نحتاج الى كلمات في تلك اللحظة، فقد صارت أفكارنا تتنقل بيننا دون حروف، كما لو كنا نكمل بعضنا بأبجدية غير مرئية.

امتدت يدها بهدوء، لمست يدي، نظرت الي بعينيها، كأنها تقول لي شيئا يعجز الشعر والرواية عن احتوائه.

شعرت أنني أخيرا وجدت القصيدة التي كنت أبحث عنها، والتي لم أستطع كتابتها أبدا، لأنني كنت أعيشها معها. ابتسمت وأنا أدرك أن حبنا سيظل يتدفق، في كل رواية أكتبها وكل قصيدة تكتبها هي.

سنظل نكمل بعضنا، ندفع بعضنا للأمام، ندخل عوالم جديدة ونعيد اكتشافها، لم يعد يهمني أن أفهم كل بيت تكتبه، أو أن تصل الى نهاية كل قصة أكتبها.

يكفيني أننا نمشي معا، ببطء، بين السطور والأبيات، متشابكي الأيدي، في حكاية لا نهاية لها، حكايتنا نحن.

كانت تمسك بيدي برفق، وكأنها تودعني وداعا مؤقتا لتعود بعده أقرب الي، شعرت بدفئ يديها يملأني بسكوت غريب، كأنهما تخبرانني بسر قديم عن الحب لا يقال بالكلمات.

أغمضت عيني للحظة، أتأمل تلك الطمأنينة، في تلك اللحظة، أدركت أن كل حكاية وكل قصيدة كتبتها من قبل كانت مجرد مقدمة، مجرد تمهيد لما نعيشه معا الآن.

ليلتنا الأخيرة كانت مختلفة، بلا مواعيد، بلا خطط للغد، فقط أنا وهي، نملأ السكون بموسيقى صامتة همست لي فجأة وهي ترسم بأناملها كلمات على كفي: هل ستكتبني يوما؟

نظرت اليها، وكان بريق عينيها يلمع كأنها تطلب وعدا أو عهدا. لم أجد سوى أن أبتسم وأقول: اكتبك كل يوم، حتى لو تري ذلك.

نهضت، أغلقت النور، وجلسنا معا في العتمة، لكن لم أشعر بظلام، كانت هناك نيران خافتة تشعلها كلماتي وكلماتها.

أخبرتني أن الليل لا يكون جميلا الا حين يكتب له ألا ينتهي، تماما مثل قصتنا، التي تتجاوز حدود الورق وتعيش في الأعين التي تلتقي والأنفاس التي تتسارع.

مع شروق الفجر، أدركت أنني لن أحتاج يوما الى أن أختم روايتي عنها، ولن تضطر هي الى انهاء قصيدتها عني، نحن حكاية مفتوحة، نعيشها ونعيد كتابتها كل يوم.

تركت يديها، لكنها بقيت معي في قلبي، في كل كلمة أكتبها وفي كل حرف أنطقه.

الآن، عندما أجلس على مكتبي وأكتب، أراها بين السطور، تراقبني بعينيها الساحرتين، تنسج لي الإلهام بكلماتها الخفية. أعرف أنها ستكون دائما قصيدتي التي لن تكتمل.



لم أكن أتخيل يوما أنني سأجد نفسي منخرطة في السياسة، كنت فتاة عادية، أعيش في حي مترف في البساطة، أحيانا ما أتابع الأخبار وأقرأ الكتب والجرائد التي أستعيرها من البقال، لم أكن أرى نفسي كشخصية فاعلة في المجتمع. كانت حياتي روتينية الى أبعد تقدير، لكن الشبح المفقود دائما ظل يراودني، شيء أكبر من مجرد حياة هادئة أو مستقبل مهني أو زوج مخضرم.

